

والحياة البشرية تقوم على الاثنين معاً ، ولا يمكن أن تقوم على واحد منهما فقط فالدين لنشر مكارم الأخلاق والآداب وتهذيب النفس وضبطها وتغذيتها وتزيينها ، والسمو بالروح وبعث الضمير وتوجيه العلم وطاعاته وقواه إلى طريق الخير والحق والسلام لا إلى طريق الشر والباطل والحرب . والعالم لبناء الجانب المادى من الحياة وخدمة جسم الانسان وتوفير ما يلزم له من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وغير ذلك .

يفهم مما تقدم أن ما تطور وتغير من الحياة البشرية عبر السنين والقرون هو شكلها — ا ومظهرها ووسائلها وأساليبها أما الروح والجوهر والغاية والهدف فلم يطرأ عليها تطور ولا تغيير .

هل الدين رجعى لا يماشى الزمن

ويمنع التطور والتقدم

يتهم بعض الناس من مسلمين وغير مسلمين الدين بالرجعية والجمود والقصور عن مماشاة ركب الحياة المتطور الصاعد . ومن ذلك قول كارل ماركس فيلسوف الشيوعية إن الدين أفيون الشعوب ، أى أن الدين يخدر الشعوب كالمخدرات ويمنعها من العمل والانتاج والتقدم . وفى رأى أن هذا الاتهام باطل لمخالفاته

روح الحقيقة والواقع ، فهو لم يصدر عن دراسة عميقة وافية ولا عن نظرة فاحصة دقيقة لحقيقة الدين وجوهره وإنما صدر عن رؤية صورة زائفة مشوهة للدين تمثلت في جهلاء متنسكين وعلماء متهتكين تاجروا بالدين وأساءوا العمل به وساروا لجنبهم ونفاقهم في ركاب حكام طغاة مستبدين وبخاصة في أوروبا فظنوا أن الدين يبيح لهم ما رأوا منهم من انحراف وفساد واستبداد ، وهناك ناس مغرضون أعمامهم الهوى والتعصب عن الرؤية الصافية الصادقة لحقيقة الدين والحكم الموضوعى السليم عليه ، والهوى والتعصب آفة رأى الصائب والحكم السليم وحجاب الحقيقة .

وحكم كارل ماركس على الأديان السماوية كلها كان من خلال رؤيته السطحية لمواقف رجال الدين المسيحي الممثلة في روسيا القيصرية وسائر أوروبا من الملوك والقيصرة المستبدين المتسلطين على مقدرات شعوبهم والمستغلين لخيراتهم والممتصين لدمائهم . ومن خلال مواقفهم السلبية من النهضة العلمية الحديثة ، ومن سوء استغلالهم لما كان في أيديهم من مظاهر السلطة والسلطان .

وهكذا كان حكم كارل ماركس وغيره على الأديان السماوية واتهامها بالرجعية والجمود صادرا عن جهل وسوء فهم لها وعن مشاهدة صور ممسوخة مشوهة لها فمثلهم في ذلك مثل شخص اتهم

القانون بالجور والإجحاف لأن القاضى تلاعب بالقانون وفق
الهُوى والغرض وخرج به عن طريق العدل والإنصاف ، مع أن
الواجب يقتضى اتهام القاضى لا القانون بالمبادئ والأديان
والقوانين والدساتير والقرارات السليمة العادلة لا تؤتى أكلامها
ما لم يتول تطبيقها شخصيات عاقلة واعية ومستقيمة نزيهة .

فلو درس كلل ما ركس وغيره تاريخ العرب قبل الإسلام
وفى ظل الإسلام الحنيف وبعده لعرف أن الإسلام دين الحرية
والإخاء والمساواة والتقدم والعلم والحضارة ولعرف أنه عدو
الرجعية والتخلف والعبودية والتسلط والاستغلال والجهل والظلام
ويدل على ذلك تاريخ العرب المشرق وماضيهم المجيد . فالكل
يعرف أن العرب قبل الإسلام فى ظلمات العصر الجاهلى عصر
الجهالة والامية والضلال كانوا مستعمرين للفرس والروم والأحباش
ولم يكن لهم دولة ولا حضارة وكان يسودهم النظام القبلى الذى
يقوم على الولاء المطلق لرئيس القبيلة والتعصب الأعمى لكل فرد
فيها فى الحق والباطل وفى الخير والشر . كما أنهم كانوا ممزقين
عقائدياً ودينياً فقسم كبير منهم اتخذ الأصنام آلهة يعبدونها من
دون الله وبعضهم عبد السكراكب والنجوم وبعض الحيوانات .
وهناك الدهريون الملحدون الذين قالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا

نموت فيها ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر . وظهرت الديانتان النصرانية واليهودية في نجران واليمن ويثرب وخيبر . وكانت تمرقهم وتطحنهم بعض الأخلاق الذميمة كالآثورة والأناية والعادات السيئة كوأد البنات والسكر ولعب القمار والأخذ بالثأر واستغلال الغنى للفقير واستعباد القوي للضعيف فضلاً عن كسب المال الحرام بطريق الجشع والاستغلال والربا والغزو والنهب والسلب .

وقد أخرجهم الإسلام من الظلمات إلى النور ومن الجهل والضلال والكفر إلى العلم والهدى والإيمان . ومن التمزق والانقسام والتقاتل إلى التعاون والاتحاد والتآلف ، فتمعنوا قولاً وعملاً ولساناً ويداً وعقلاً وقلباً فصاروا بنعمة الله وفضله إخواناً متآلفين وأسرّة متحابّة متضامنة على بناء الخير وهدم الشر ، فتحلوا بمكارم الأخلاق وسامى الآداب وكريم العادات والصفات وأقاموا أعظم دولة للعلم والإيمان امتدت إلى فرنسا غرباً والصين شرقاً . وأضاء سماء الدولة العربية الإسلامية وأرضها نور حضارة عربية إسلامية قبست من أنوار حضارات الفرس والروم والإغريق والهند وكانت منار الدنيا في العصور الوسطى ثم قبست من أضوائها أوروبا واتخذت منها أساساً وبذوراً لحضارتها المعاصرة وسطع في سماء العالم العربي والإسلامي وآفاقه كواكب ونجوم في شتى ألوان العلوم والآداب

والفنون. وفي ظلال الإسلام الحنيف الوارفة انتشرت اللغة العربية في أرجاء العالم وصارت لغة الحضارة العربية الإسلامية وانصهر في بودقة العروبة والإسلام شعوب كثيرة ودخل في رحاب الإسلام أمم عديدة، وآخى الإسلام بين المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم. فلو كان الإسلام كالأفيون يخدر الشعوب ويجمدها ويمنعها من النهوض والتقدم والحياة الحرة الكريمة لما هدى العرب والمسلمين ووحدهم وأعزهم من بعد ضلال وانقسام وذل، ولما أقاموا في ظله أعظم دولة وأرقى حضارة في العصور الوسطى. ولا أدل على سمو الإسلام وتقدميته من أن العرب عادوا بعد أن تحللوا من مبادئه السامية وأخلاقه العظيمة وانحرفوا عن صراطه المستقيم إلى ما كانوا عايناه قبل الإسلام من جاهلية وظلام وتخلف عالمي حضارى وتفرق وضعف.

وإذا ما نظرنا في الإسلام الحنيف وقابنا الطرف فيه تبين لنا أنه تجسد فيه التقدمية الحققة والنهضة الصحيحة والحضارة الإنسانية الخيرة المثمرة. ونعرف ذلك من أن أول آية كريمة نزلت في القرآن الكريم تأمر بالقراءة التي هي مفتاح العلم والحضارة: «اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم».

وتتابع نزول الآيات الكريمة التي تحث على طلب العلم والتسلح به . قال سبحانه وتعالى : « وقل رب زدني علماً » . وقال جل شأنه : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، وقال تبارك وتعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .

وطلب العلم فريضة محكمة على كل مسلم ومسلمة كما قال رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

وفرض على المسلم أن يسعى إلى العلم ولو كان في أقصى الأرض كما قال أحد المفكرين المسلمين : « اطلبوا العلم ولو في الصين » .

والمسلم الذي يطلب علماً نافعاً ينفع به نفسه وأهله وأُمَّته يدخل به الجنة كما قال رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) : « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً يسر الله له به طريقاً إلى الجنة » ، وقال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » . وفرض على المسلم أن ينفع الناس بما نال من علم ونور وإلا كان أثراً أُنانياً . والمؤمن لا يكون أُنانياً .

ولا شك في أن العلم والحضارة من ثمار التفكير السليم
العميق الحر .

لذلك جعل الله التفكير والتأمل في ملكوت الله وفي خلق
السموات والأرض وفي أعماق النفس البشرية فريضة وواجباً
وأمرأ . وقد وصف الله تعالى المؤمنين أولى الأبواب بأنهم هم الذين
يتفكرون في خلق السموات والأرض فقال : « الذين يذكرون
الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات
والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فمما عذاب النار » .

وأولو الأبواب الذين هداهم الله يميزون بين الكلمة الطيبة
المثمرة والكلمة الخبيثة العقيمة ويتبعون الكلمة الحسنة كما قال
الله سبحانه وتعالى : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأولئك
الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الأبواب » .

ويحث الله تعالى الناس على أن يتدبروا القرآن الكريم وينظروا
في محكم آياته ليهتدوا إلى الله ويروا عظمتهم ووحدانيته فيقول :

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » .

« كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » .

ويدعوهم إلى التفكير في أنفسهم ليتبينوا قدرة الله المعجزة

وحكمته البالغة فيقول : « أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق » .

ويقول جل شأنه : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » .

وينعى الله تعالى على قوم إبراهيم عليه السلام تقليدهم الأعمى لأبائهم في عبادة الأصنام المصنوعة من الحجارة والتي لا تسمع ولا تنطق ولا تنفع ولا تضر فيقول : « واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » .

والتفكير لا يؤتى أكله ما لم يكن حرّاً كنور الشمس . ومن حرية التفكير حرية التعبد والتدين لذلك لم يكره الله تعالى أحداً على الدخول في دينه الإسلامي الحنيف فقال جل شأنه : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » . وقال عز وجل : « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين » .

وجعل الله تعالى مهمة رسله وأنبيائه تبليغ الناس رسالة ربهم وجعلهم مبشرين ومنذرين لا مستبدين ولا متحكمين متسلطين .

قال عز وجل : « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » .
وقال جل جلاله : « وما على الرسول إلا البلاغ المبين » ، وقال
تبارك وتعالى : « فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه
توكلت وهو رب العرش العظيم » .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً أن يتبع أسلوب
الإقناع والحكمة والموعظة الحسنة في دعوة الناس إلى الدخول في
دين الله لأسلوب القوة والاكراه ، لأن اعتناق الأديان والمذاهب
يكون بالرضا والاختيار ولا يكون بالعنف والإجبار ،
فالمرء يخلص للدين الذي دخل فيه طائفاً مختاراً ولا يخلص لدين
أرغم على اتباعه ، وما يأتي بالحب والإيمان يدخل القلب ويتركو
ويشمر وما يأتي بالتهديد والاكراه لا يتعدى حد الأذن واللسان
ولا يابث أن يشول إلى الهجر والنسيان بمجرد زوال القوة التي
فرض بها .

وهكذا لا إكراه في الدين كما أنه لا إكراه في الزواج الذي
ينمو ويشمر ثمراً طيباً إذا قام على تبادل الحب والرضا ولا ينمو
ولا يشمر إذا بنى على الغضب والإكراه . كذلك لا إكراه في تناول
الطعام والشراب ، فإذا أرغم شخص على تناول طعام أو شراب

لا يرغب فيه لا يستسيغه ولا يستفيد منه . أما الطعام أو الشراب الذى يتناوله راغباً فيه فإنه يستمرئه وينتفع به .

قد يسأل سائل : وماذا تقول فى محاربة المسلمين للفرس والروم وبعض القبائل العربية . فنجيبه بأنها كانت دفاعاً عن النفس ورداً لعدوان أعداء الإسلام وإزالة للعقبات التى ظهرت فى طريق انتشار الإسلام ، وهدماً للحواجز والسدود التى كانت تمنع أنوار الإسلام من الانتشار والسطوع وبلوغ مداها .

وهكذا الإنسان بالتفكير العميق والتأمل البعيد عرف الله واكتشف الكثير من أسرار الكون وقوانين الطبيعة والنظريات العلمية . وتحصيل العلم وبناء الحضارة يتطلب نشاطاً عقلياً ونفسياً وجسمياً واجتهاداً وسعيّاً وعملاً . والعلم لا يؤتى أكله ولا يشمر ما لم يتبعه تطبيق لنظرياته وأفكاره وعمل بمنهجه وأسلوبه . ويجب على المرء أن يعمل بما يعلم وإلا كان كالشجر بلا ثمر . لذلك أمر الله الإنسان أن يفكر ليعرف ويعلم أمره أن يعمل بشمرات تفكيره وعلمه . لأن تعمير الأرض وبناء الحضارة وصنع الحياة الطيبة الكريمة يتطلب تفكيراً وعملًا وعملاً . لهذا دعاه الله تعالى إلى العلم فقال جل شأنه : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . وأمره بالعمل الطيب المشمر : « وقل اعملوا فسيرى

الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » وقال تبارك وتعالى : « والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

وهكذا أمر الله تعالى بالتفكير الجري السليم والعام السامى النافع والعمل الطيب المشمر . لأنه بذلك يمتدى الإنسان إلى الله ويعرف نفسه كما أنه شاد منار العلم والحضارة والمدنية وأنتج ما أنتج من ألوان العلوم والآداب والفنون . وطأ فى الجوى وصعد إلى القمر وغاص فى البحر وذلل البر لخدمته .

العصر الذهبى للعدالة الإنسانية

يحدثنا التاريخ قديمه وحديثه أن الدماء الغزيرة التى سفكت ظلما وعدوانا والجرائم والمظالم التى ارتكبت والردائل والآثام التى اقترفت والأموال التى نهبت والأرزاق والأعتاق التى قطعت بالظلم والباطل كانت من فعل الذين لم يعرفوا الله ولم يتقوه ، ويحدثنا كذلك أن مبادئ الحق والعدل والفضائل الإنسانية لم تنتشر ولم تزدهر إلا على أيدي الذين يؤمنون بالله حقاً وينفونه فهم يحتنبون المفاسد والآثام كما يحتنبون الأمراض والأوساخ فهم رعاة الفضائل